تفسير سُورةُ النَّبَأِ
من آية (31) إلى آية (40)
الجزء الثالث

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا} [31-36]

المعنى الإجمالي: يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ المتَّقينَ يومَ القيامةِ، وما أعدَّ لهم مِن النَّعيمِ: إنَّ للمُتَّقينَ فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونَجاةً مِنَ النَّارِ؛ بَساتينَ وأعنابًا، ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَتْ أثداؤُهنَّ، مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، مُتتابِعةً على شارِبيها، لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ كَلامًا باطِلًا لا فائدةَ فيه، ولا تَكذيبًا؛ جزاءً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عَطاءً كثيرًا كافيًا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿31﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى شيئًا مِن حالِ أهلِ النَّارِ؛ ذَكَر ما لأهلِ الجنَّةِ

في قَولِه تعالى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا إلى قَولِه تعالى: جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ما للمُتَّقينَ مِن النَّعيمِ بعدَ قَولِه: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا؛ لأنَّ القرآنَ مَثانٍ؛ إذا ذُكِرَ فيه العِقابُ ذُكِرَ فيه الثَّوابُ، وإذا ذُكِرَ الثَّوابُ ذُكِرَ العِقابُ، وإذا ذُكِرَ أهلُ الخيرِ ذُكِرَ أهلُ الشَّرِّ، وإذا ذُكِرَ الحقُّ ذُكِرَ الباطِلُ. مَثانٍ؛ حتَّى يكونَ سَيْرُ الإنسانِ إلى ربِّه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إنْ غَلَبَ عليه الرَّجاءُ وَقَعَ في الأمْنِ مِن مكْرِ اللهِ تعالى، وإنْ غَلَبَ عليه الخَوفُ وَقَعَ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ تعالى، وكِلاهما مِن كبائرِ الذُّنوبِ، كِلاهما شَرٌّ؛ قال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبَلٍ رحمه اللهُ: (يَنبغي أنْ يكونَ الإنسانُ في عبادتِه لربِّه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه)؛ لذلك تَجِدُ القرآنَ الكريمَ يأتي بهذا وبهذا، ولئلَّا تَمَلَّ النُّفوسُ مِن ذِكْرِ حالٍ واحدةٍ والإسهابِ فيها دونَ ما يُقابِلُها، وهكذا؛ مِن أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ حينَ يَقرأُ القُرآنَ راغبًا راهبًا، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) أي: إنَّ للَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه: فَوزًا بالجَنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونجاةً مِنَ النَّارِ. موسوعة التفسير

وقال أبو هريرة -رضي الله عنه-: حينما سئل عن التقوى: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال نعم فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: "التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

وقال طلق بن حبيب –رحمه الله–: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرا، فهو خير إلى خير.

قيلَ للنَّبيِّ ρ: يا رَسولَ اللهِ! إنَّ فلانةَ تقومُ اللَّيلَ وتَصومُ النَّهارَ وتفعلُ، وتصدَّقُ، وتُؤذي جيرانَها بلِسانِها؟ فقال رسولُ اللهِ ρ لا خَيرَ فيها، هيَ من أهلِ النَّارِ. قالوا: وفُلانةُ تصلّي المكتوبةَ، وتصدَّقُ بأثوارٍ، ولا تُؤذي أحدًا؟ فقال رسولُ اللهِ: هيَ من أهلِ الجنَّةِ". صحيح الأدب المفرد

كما قال الله تبارك وتعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ ﴿32﴾

(حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا) أي: بساتينَ مُحاطةً بالجُدْرانِ أو غَيْرِها، جامعةً لأصنافِ الأشجارِ المثمرةِ، ومِنها الأعنابُ. موسوعة التفسير

قَولُه: وَأَعْنَابًا خَصَّ أشجارَ العِنَبِ؛ لطِيبِها وحُسْنِها وشَرَفِها، وما فيها مِن لذَّةِ الذَّوقِ.

وقال السَّعْديُّ: (حَدَائِقَ وهي البساتينُ الجامِعةُ لِأصنافِ الأشجارِ الزَّاهيةِ، في الثِّمارِ الَّتي تَتَفَجَّرُ بينَ خِلالِها الأنهارُ، وخَصَّ الأعنابَ لِشَرفِها وكَثرَتِها في تِلكَ الحَدائِقِ).

☜ثمار الجنة تتفق بالاسم مع ثمار الدُّنيا لكن الطعم والرائحة والشكل مختلف.

وقال ابن عباس: "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا الا في الأسماء".

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ ﴿33﴾

(وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا) أي: ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَت أثداؤُهنَّ وبَرَزَت دونَ أن تتدلَّى للأسفَلِ، وهنَّ مُتساوِياتٌ في السِّنِّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ [الواقعة: 35 – 38].

وقال السَّعْديُّ: (عُرُبًا أَتْرَابًا): ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها

وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحا وسرورا، وإن برزت من محل إلى آخر، امتلأ ذلك الموضع منها ريحا طيبا ونورا، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع. والأتراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنساؤهم عرب أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هن أفراح النفوس، وقرة العيون، وجلاء الأبصار.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ﴿34﴾

(وَكَأْسًا دِهَاقًا) أي: وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، صافيةً، مُتتابِعةً على شارِبيها. موسوعة التفسير

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: "خمر الآخرة طيب، ليس فيه إسكار ولا مضرة ولا أذى، أما خمر الدنيا ففيه المضرة والإسكار والأذى، أي: إن خمر الآخرة ليس فيه غَوْل ولا ينزف صاحبه، وليس فيه ما يغتال العقول، ولا ما يضر الأبدان، أما خمر الدنيا فيضر العقول والأبدان جميعا، فكل الأضرار التي في خمر الدنيا منتفية عن خمر الآخرة. وبالله التوفيق".

وثبت عن النبي ρ أنه قَالَ: "مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ". رواه البخاري

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ ﴿35﴾

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا) أي: لا يَسمَعُ المتَّقونَ في الجَنَّةِ لَغَطًا أو كَلامًا باطِلًا لا فائِدةَ فيه، ولا يَكذِبونَ ولا يُكَذِّبُ بَعْضُهم بعضًا في حَديثِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: أي: لا يَسمَعونَ في الجَنَّةِ الكلامَ السَّافلَ ولا الكذبَ، فلمَّا أحاطَ بأهلِ جهنَّمَ أشَدُّ الأذَى بجميعِ حواسِّهم مِن جرَّاءِ حرقِ النَّارِ، وسَقْيِهم الحميمَ والغَسَّاقَ؛ لِيَنالَ العذابُ بواطنَهم، كما نالَ ظاهرَ أجسادِهم، كذلك نَفى عن أهلِ الجنَّةِ أقلَّ الأذى، وهو أذى سماعِ ما يَكرَهُه النَّاسُ؛ فإنَّ ذلك أقلُّ الأذى.

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ ﴿36﴾

(جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا) أي: وهذا الجَزاءُ المذكورُ للمُتَّقينَ هو عَطاءٌ كافٍ وافِرٌ كثيرٌ مِن رَبِّك- يا محمَّدُ. موسوعة التفسير

كما قال الله تبارك وتعالى: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا [المزمل: 20].

وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في وَصْفِ عَذابِ أهلِ النارِ: إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا، وقال في وَصْفِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ: وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا [النبأ: 34-36] ، فوَصَفَ الجَزاءَ الأوَّلَ منهما بالوِفاقِ، ووَصَفَ الثَّانيَ بأنَّه حِسابٌ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالَى قال: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا [الأنعام: 160] ، وقال: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا [النمل: 89] ، وقال: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا [الأنعام: 160] ، فلمَّا كانت الحَسَنةُ بأضْعافِها، والسَّيِّئةُ بمِثلِها، استُعمِلَ في جَزاءِ السَّيِّئةِ أنَّه وِفاقٌ لها، غيرُ زائدٍ عليها، ولا قاصرٌ عنها، ولَمَّا

كانت الحَسَنةُ بأضعافِها، استُعمِلَ في جَزائِها أنَّه عَطاءٌ يَكفي مُعطاه، ويَبلُغُ مِن مَطلوبِه مُنتهاهُ، فقال: عَطاءً بحَسبِه، أي: يَكْفيهِ ممَّا يُريدُ ويَشتهيه، ويُغْنِيه عن طَلَبِ زِيادةٍ إليه، وإذا كان كذلك لم يَصلُحْ لكلِّ مكانٍ إلَّا ما استُعمِلَ فيه. الدرر السنية

تربى صاحبة رسول ρ على عدم تعجل طيباتهم في الحياة الدنيا وكان ديدنهم أن يؤخروا الاستمتاع بشهواتهم إلى الآخرة. ورَوى الحَسَنُ عَنِ الأحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ τ يَقُولُ: لَأنا أعْلَمُ بِخَفْضِ العَيْشِ ولَوْ شِئْتُ لَجَعَلْتُ أكْبادًا، وصَلائِقَ، وصِنابًا، وكَراكِرَ، وأسْنِمَةً، ولَكِنِّي رَأيْتُ اللَّهَ نَعى عَلى قَوْمٍ فَقالَ: ﴿أذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكم في حَياتِكُمُ الدُّنْيا واسْتَمْتَعْتُمْ بِها﴾. وأنَّما أرادَ عُمَرُ بِذَلِكَ الخَشْيَةَ مِن أنْ يَشْغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ واجِبِهِ مِن تَدْبِيرِ أُمُورِ الأُمَّةِ فَيَقَعَ في التَّفْرِيطِ ويُؤاخَذَ عَلَيْهِ. وذَكَرَ ابْنُ عَطِيَّةَ: أنَّ عُمَرَ حِينَ دَخَلَ الشّامَ قَدَّمَ إلَيْهِ خالِدُ بْنُ الوَلِيدِ طَعامًا طَيِّبًا. فَقالَ عُمَرُ: هَذا لَنا فَما لِفُقَراءِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ ماتُوا ولَمْ يَشْبَعُوا مِن خُبْزِ الشَّعِيرِ؟ فَقالَ خالِدٌ: لَهُمُ الجَنَّةُ، فَبَكى عُمَرُ. وقالَ: لَئِنْ كانَ حَظُّنا في المَقامِ وذَهَبُوا بِالجَنَّةِ لَقَدْ بايَنُونا بَوْنًا بَعِيدًا.

وروي عن أبي الدرداء τ أنه زاره بعض الناس في بيته فلما رأى قلة متاعه وأثاثه قال له: (إن لنا داراً ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها) يعني أنهم يتصدقون بكل ما يجدون ازدياداً من حظهم في الآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: (أكمل الناس لذةً من جُمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقصُ حظه من الدار الآخرة... وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يُقالُ لهم يوم استيفاء اللذات (أذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكم في حَياتِكُمُ الدُّنْيا واسْتَمْتَعْتُمْ بِها) فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أُذن لهم فيه، فجُمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة سواءٌ أُذن لهم فيه أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا ولا لذة الآخرة حصلت لهم.

قالَ رَسولُ اللهِ ρ :"كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إنَّ علَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَن يَشْرَبُ المسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِن طِينَةِ الخَبَالِ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وَما طِينَةُ الخَبَالِ؟ قالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ". صحيح مسلم

فمن أحبّ اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادتِه وعبادتِه، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه، لا بحكم مجرد الشهوة والهوى، وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادةً في لذة الآخرة، ويُجمَّ نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك...).

لنذهب سريعاً في رحلة إلى الجنة ونرى نعيمها، تخيلوا أهل الإيمان يقفون زمراً وأفواجاً أمامها، ولكنهم لا يسيرون إليها، بل هي من تُزلف لهم وتقترب منهم، فتفتح الجنة لهم أبوابها، وأي أبواب أبوابها، لا مثيل لها من اتساعها، إذ الباب الواحد ما بين مصراعيه مسيرة أربعين عاماً. وقد أخبرنا ρ أنه يأتي عليه يوم

ويكون مزدحماً، والجنة أبوابها ثمانية، يدخل المؤمن من أي باب شاء، وسط ترحيب وحفاوة كبيرة، فيقول لهم الملائكة: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) يدخل بعدها دار النعيم الأبدي الفائزون، وفي أصناف اللذات يتقلّبون، وعلى سررهم يجلسون، المفروشة بسندس وإستبرق، وعلى أرائكها يتّكئون، ومن ألذ وأشهى الطعام يأكلون، ومن أنهار الخمر والعسل واللبن المصفى يشربون، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ. وبالحور العين يتنعّمون، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ، وماؤها يجري في أخدود، ونعيمها ليس محدود، لا تشبه شيئاً من أشياء الدنيا؛ فالزعفران ترابها، واللؤلؤ حصباؤها، عليل هواءها، يفوح المسك من جدرانها. هل تتخيلون حياة لا مرض فيها، ولا موت ، ولا فقر ، ولا سقم ولا هم ولا غم، هل لكم أن تتخيلوا أن تسمعوا منادياً يناديكم: (إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أَبَدًا)، الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أتدرون ما هو النعيم الحقيقي في الجنة، هو رؤية وجه الله الكريم، نسأل الله – تعالى– أن يكرمنا جميعاً بلذة النظر إلى وجهه، وهذا وعد من رسول الله –ρ– فقد قال: (أَما إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ)، وبعد كل ذلك النعيم يسألهم الله –تعالى– هل رضوا بهذا الجزاء العظيم، ويبشرهم بالزيادة، فيعدهم الله –تعالى– برضوانه الأبدي، فلا يسخط عليهم بعد ذلك أبداً، فأي فوز وأي فلاح كهذا الفلاح.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) [40–37].

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ﴿37﴾

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ) أي: خالِقِ ومالِكِ ومدَبِّرِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، الرَّحمنِ الَّذي وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ. موسوعة التفسير

(لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) أي: لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبةِ اللهِ –سُبحانَه وتعالى– يومَ القيامةِ بلا إذْنٍ. موسوعة التفسير

■ (قولُه عزَّ وجلَّ: لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا؛ هَيْبةً مِن الله تعالى، وتعظيمًا لحقِّه؛ فلا يَملِكونَ مِن هَيْبَتِه الخِطابَ بالشَّفاعةِ أو بالخُصومةِ أو بأيِّ شيءٍ كان).

"يَطْوِي اللهُ السماواتِ يومَ القيامةِ، ثم يَأْخُذُهُنَّ بيدِه اليُمْنَى، ثم يقولُ: أنا المِلكُ أين الجَبَّارُونَ؟ أين المتَكَبِّرُونَ؟ ثم يَطْوِي الْأَرَضِينَ، ثم يَأْخُذُهن بشمالِه، ثم يقولُ: أنا المِلكُ أين الجَبَّارُونَ؟ أين المتَكَبِّرُونَ. صحيح الجامع.

لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

قال ابن عاشور: الرَّحْمَنِ، وخُصَّ بالذِّكرِ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّ في معناه إيماءً إلى أنَّ ما يُفيضُه مِن خيرٍ على المتَّقينَ في الجنَّةِ هو عطاءُ رحمنٍ بهم.

كما قال الله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [هود: 105].

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿38﴾

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) أي: وذلك واقِعٌ يَومَ يقومُ جِبريلُ وجميعُ الملائِكةِ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [الفجر: 22].

(لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) أي: لا يَتكَلَّمونَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له في الكلامِ، وقال قَولًا حَقًّا صائِبًا مُوافِقًا لِمَرْضاةِ اللهِ تعالى. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: إطلاقُ صِفةِ الرَّحمنِ على مَقامِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ لِمَن يَتكلَّمُ في الكلامِ أثَرٌ مِن آثارِ رحْمَتِه؛ لأنَّه أَذِنَ فيما يحصُلُ به نفعٌ لأهلِ المحشَرِ مِن شفاعةٍ أو استغفارٍ.

قال السعدي: لا يتكلَّمُ أحدٌ إلَّا بهذَينِ الشَّرطَينِ: أن يأذَنَ اللهُ له في الكلامِ، وأن يكونَ ما تكلَّمَ به صوابًا.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ ﴿39﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر أحوالَ المكَلَّفينَ في دَرَجاتِ الثَّوابِ والعِقابِ، وقَرَّر عَظَمةَ يَومِ القيامةِ؛ قال بَعْدَه

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ) أي: ذلك اليَومُ العَظيمُ كائِنٌ لا مَحالةَ، ولا شَكَّ في وُقوعِه. موسوعة التفسير

قال الماوَرْدي: (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ يعني: يومَ القيامةِ، وفي تسميتِه الْحَقُّ وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّ مجيئَه حقٌّ، وقد كانوا على شَكٍّ. الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى يَحكُمُ فيه بالحقِّ بالثَّوابِ والعِقابِ).

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا) أي: فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى. موسوعة التفسير

قال البِقاعي: (مَآبًا أي: مَرجِعًا هو المرجِعُ مِمَّا يَحصُلُ له فيه الثَّوابُ بالإيمانِ والطَّاعةِ).

كما قال تعالى: (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) [الإنسان: 29].

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ﴿40﴾

(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا) أي: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قد دنا وقَرُبَ منكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} الآيات.

وقال ابنُ عاشور: (العَذابُ يَصْدُقُ بعذابِ الآخِرةِ، وهو ما تقَدَّم الإنذارُ به، ويَصدُقُ بعذابِ الدُّنيا مِن القَتْلِ والأسْرِ في غَزَواتِ المسلِمينَ لأهلِ الشِّرْكِ).

قال القرطبي: (الأظهَرُ أنَّه عذابُ الآخرةِ، وهو الموتُ والقيامةُ؛ لأنَّ مَن مات فقد قامت قيامتُه، فإن كان مِن أهلِ الجنَّةِ رأى مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ، وإن كان مِن أهلِ النَّارِ رأى الخِزْيَ والهَوانَ).

كما قال تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا [المعارج: 6-7].

وقال سُبحانَه: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [النازعات: 46].

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أي: وذلك يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه مِن قَبْلُ في حياتِه. موسوعة التفسير

قال الواحدي: (والظَّاهِرُ أنَّ الْمَرْءُ عامٌّ في كُلِّ أحدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يرى في ذلك اليوم ما كَسَب وقَدَّم وأخَّرَ مِن خيرٍ وشَرٍّ مُثبَتًا عليه في صحيفتِه).

كما قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا [آل عمران: 30].

وقال سُبحانَه: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 6 - 8].

(وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) أي: ويقولُ الكافِرُ مُتحَسِّرًا يومَئِذٍ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (كُنْتُ تُرَابًا تحتَمِلُ ثلاثةَ مَعانٍ: المعنى الأوَّلُ: يا لَيْتَني كنتُ ترابًا فلم أُخلَقْ؛ لأنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن ترابٍ. المعنى الثَّاني: يا ليتَني كنتُ ترابًا فلم أُبعَثْ، يعني: كُنتُ ترابًا في أجوافِ القُبورِ. المعنى الثَّالثُ: أنَّه إذا رأى البهائِمَ الَّتي قضى اللهُ بيْنَها، وقال لها: كُوني تُرابًا، فكانت ترابًا؛ قال: لَيْتَني كنتُ تُرابًا، أي: كما كانت هذه البهائِمُ. واللهُ أعلَمُ).

كما قال تعالى: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا [النساء: 42].

قال ابن عاشور: ذِكْرُ وَصْفِ الكافِرِ يُفهِمُ منه أنَّ المؤمِنَ ليس كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ وإن عَمِلَ بَعضَ السَّيِّئاتِ، وتوقَّع العِقابَ على سَيِّئاتِه؛ فهو يَرْجو أن تكونَ عاقِبتُه إلى النَّعيمِ.

وقال السعدي: فإن وجد خيرا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

■الواجب على العبد المسارعة في التوبة والرجوع الى الله قبل أن يأتي يوم لا ينفع النادمين ندمهم وحسرتهم فليغتنم حياته قبل مماته ويتوب ويؤب فهو سبحانه يفرح بعباده التائبين نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة عم، والحمد لله رب العالمين